محاضرات في مقياس التربية والتكوين في الجزائر د . تالي جمال

عنوان الماستر: علم اجتماع التربية اسم الوحدة: أساسية الرصيد: 5 المعامل: 2

المحاضرة السابعة: التربية والتعليم في عهد الاستعمار الفرنسي ج02

ثانيا. التعليم الأصلي (التقليدي):

شكلت الأوقاف المورد الأساسي للتعليم والمعلمين والمكتبات والمساجد والحركة العلمية والثقافية سواء أيام العثمانيين أو حتى أيام الفرنسيين، إلاّ أنّه ومنذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر صادرت السلطات الفرنسية أموال الوقف، لتجفيف منابع التعليم حيث توقفت الحياة العلمية وأصبح بعض المعلّمين ورجال الدين موظفين لدى الاستعمار الفرنسي بعد أن قلّ عددهم وتدجّنت أفكارهم."[i]

فالتعليم قبل الاحتلال شكل محور اهتمامات الشعب الجزائري، واحتل جزءا أساسيا من حياة الناس، وكان العلم والتعليم والمعلم والمتعلم موضع تقدير وإعجاب من كافة فئات المجتمع الجزائري، حيث توفرت المدارس وانتشر الوعي التربوي في المدينة والريف.

والمطّلع على التقارير التي كان يعدّها الفرنسيون حول حال التعليم في الجزائر، نجدهم يقرّون بانتشار التعليم غداة الاحتلال، واضمحلاله بعد عشر سنوات من الاحتلال، ويمكن ان نخلص من خلال تلك التقارير إلى:

- الاستمرار في إهمال التعليم العربي الإسلامي وعدم رد الأوقاف إليه، رغم تشبث الأهالي به، ومقاطعتهم للمدرسة الفرنسية.

- إنشاء تعليم مزدوج خاص بالجزائريين تدرس فيه اللغة العربية على أن تكون الفرنسية وعلومها هي السيّدة.
- ترك التعليم في الزوايا الريفية والمعمرات على ما هو عليه، مع مراقبة برنامجه ومعلّميه، حتى لا تكون الزوايا مراكز لمعاداة الفرنسيين. يقول لويس ران: "كان القرآن في الجزائر هو المعلم والتعليم"

وحسب التقارير الفرنسية فان التعليم التقليدي أو الأصلي، قد توقّف عن آداء مهامه لظروف الحرب أو لاستيلاء فرنسا على أموال الأوقاف، وهجرة العلماء والمعلمين أو نفيهم خاصة في العقود الأولى التي تلت الاحتلال.

لكن رغم كل ما ذكرناه استمرت الزوايا والكتاتيب في آداء دورها التعليمي، وأغلبها كان يكتفي بضمان الحد الأدنى من التعليم، كتعليم مبادئ الدين وتحفيظ القرآن.

1. التعليم في المدارس القرآنية:

لقد تفطن الاستعمار إلى أهمية التعليم الديني في المجتمع الجزائري، والذي يعد تعليما قاعديا يستمد منه الشعب الجزائري روحه وإيمانه وقوّته وهويته، فإنهم إذا منعوه أثاروا سخط السكان، فاتفقوا على

إفراغه من محتواه وتجريده من مؤسساته، والتحكم في المؤدبين بعد توظيفهم وتدجّينهم أفكارهم ومنعهم من تجاوز التحفيظ إلى التفسير.

وبذلك أصبح حفظ القرآن نوعا من العبادة، حفظ لا يقدّم شيئا في الحياة إلاّ الاعتقاد في البركة والكرامات التي يملكها الأولياء والأضرحة والمزارات، وبذلك استمرت تجربة التعليم القديمة في هذه المدارس والزوايا.

2.التعليم في المساجد:

بعد انتهاء الأطفال من مرحلة التعليم بالمدارس القرآنية يتوجه الراغبون منهم في استكمال تعليمهم إلى المساجد والزوايا لمواصلة تعليم متوسط أو ثانوي، إلاّ أنّ عدم وجود مدرسة ثانوية أو جامعة إسلامية، جعلت هذا النوع من التعليم مبعثرا في الجزائر، ليس له منهج ولا ضوابط، أو مراحل يقطعها المتعلم للوصول اليه، فهي اجتهادية وظرفية، وخاضعة لمهارة وشهرة المدرسين.

لقد تضررت المساجد والزوايا من هجرة العلماء ونفيهم وتدجين الباقين منهم، ويذكر أبو القاسم سعد الله انه بعد عشرون عاما من الاحتلال، انقرض جيل كامل من العلماء والطلبة في الجزائر، وتقطعت بهم السبل في المنافي والمهاجر، كابن العنابي والأمير عبد القادر وحمدان خوجة.....وغيرهم كثير.

كما أنّ هدم عشرات المساجد وتحويل أبرزها إلى كنائس ومستودعات وثكنات، أضرت كثيرا بالتعليم وأهله، أما البرنامج الدراسي الذي كان متبعا في المساجد فهو لا يخرج عن المواد العربية من نحو وصرف وإعراب، وتعليم لبعض المسائل الفقهية.

3.التعليم في الزوايا:

الزوايا كانت رباطا للجهاد وأماكن ترابط بها جيوش المسلمين لحماية الثغور أوقات الحرب، ثم تطورت إلى مراكز لنشر التعليم والقيام بالعبلكا زمن السلم، لتصبح مع الزمن دالة على مقرّ الشيخ الحامل للبركة والمتصوّف.

ان وضع الزوايا بعد الاحتلال الفرنسي اختلف كثيرا عما كان عليه أيام العثمانيين، اختلفت من حيث وضعها بين المدينة والريف، ففي المدن فقدت الزوايا وظائفها وتأثيرها في المجتمع بعد الاحتلال، نظرا لمضايقة الاستعمار لنشاطها ومصادرة أموال الأوقاف، أو تحويل نشاطها أمّا زوايا الأرياف فقد عادت إلى عهدها القديم وتحولت إلى رباطات للجهاد، ولعل ابرز المقاومات الشعبية في تاريخ الجزائر قادها شيوخ الزوايا، كالأمير عبد القادر وسيدي الشيخ..كما أنّ تعليم الزوايا حورب من قبل المستعمر وحاصرته المدرسة الفرنسية ونافسته.

4.المدارس الحرة:

على اثر الحرب العالمية الأولى بدأت تدب في الجزائر بوادر الفكر الإصلاحي، خاصة بعد عودة الشيخ مصطفى حافظ من مصر وتجربة ابن حمانة في المدارس القرآنية، حيث جهدا لإصلاح التعليم الديني في الجزائر.

ويقول المؤرخ احمد توفيق المدني في كتابه هذه هي الجزائر:"أن مصطفى حافظ هو أول من فكر في التعليم الحر، أي التعليم القرآني المنظم." خاصة وأن القوانين الفرنسية تسمح بذلك.

لقد تكاثرت المدارس الحرة منذ العشرينات، وتبناها الشعب الجزائري وأقبل عليها، فوجدت تعاطفا من الأغنياء والمحسنين وحماسة من العلماء الغيورين.[ii]

وانخرط شيوخ جمعية العلماء المسلمين في هذا الفكر الإصلاحي التربوي والديني، خاصة بعد تأسيسهم للجمعية والتي تبنّت مبدأ الإحياء للّغة والدين والهوية، إذ رفعت شعار الإسلام ديني والعربية لغتي والجزائر وطني، فكانت مدارس جمعية العلماء مفتوحة أمام الجزائريين، وشيوخها يعملون على تكوين جيل يؤمن بمبادئه ووطنه وحر ّيته، فأخرجت لنا جيلا من المثقفين والمتعلمين عملوا بدورهم على نشر الوعي التربوي والديني والسياسي ولعب دورا كبيرا في معركة تحرير

الوطن من الاستعمار ومن سيطرة بعض الطرق الصوفية التي عملت على نشر الدجل والسحر والشعوذة والترويج للأفكار القدرية.

ويذهب علماء الاجتماع الفرنسيون خاصة اوغستين برك، إلى أن التعليم الذي نشره شيوخ العلماء المسلمين يقوم على ربط الجزائر بالمشرق حضاريا وسياسيا، وقد استعمل العلماء في ذلك سلاح الهجوم اللغوي والهجوم العقدي ضد فرنسا. وتحول التاريخ عندهم إلى تمجيد الشرق ومعاداة الغرب، ونشروا بين أطفال المدارس فكرة الخروج عن التقاليد البالية، والانتماءات الإقليمية الضيقة، والانتماء إلى الإسلام العالمي.[iii]

5.جمعية العلماء المسلمين:

ان المتتبع لنشاط الجمعية يدرك أنها لم تحصر نشاطها في جانب معيّن، وكانت ترمي إلى إحياء اللغة العربية والتاريخ الإسلامي، وقد خاضت الجمعية كفاحا مريرا على جبهات متعددة، ووقفت بثبات أمام محاولات الدمج والذوبان في الشخصية الاستعمارية.

لقد أولت جمعية العلماء أهمية كبيرة للإصلاح الديني والاجتماعي في المجتمع الجزائري، ورغم أنها ليست جمعية سياسية الا أنها مارست السياسة بطرق غير مباشرة، وساهمت في الكثير من الأحيان لم شمل الجزائرين وتوحيد الصف في مواجهة الاستعمار الفرنسي. .[iv]

ويرى الإبراهيمي أن تقديم الجمعية للإصلاح الديني على الإصلاح العلمي جاء لضرورة اقتضتها الظروف، وعلى العموم فالجمعية ساهمت في تنقية الإسلام من الشوائب خاصة ذلك الإسلام الذي التصقت به البدع والخرافات والأساطير والسحر والشعوذة لدى بعض الطرق الصوفية التي شجع الاستعمار على نشاطها وزادها تجهيلا، فالابراهيمي يرى أن التعليم وسيلة قوية من وسائل التحرر، وكان لقيام الجمعية بإحياء مقومات الشخصية الجزائرية في إطارها الحضاري تأثير حاسم في مستقبل الجزائر لأنه حافظ على أسس تكوين الأمة الجزائرية.

ولتحقيق أهدافها وظفت الجمعية المدارس والتي يقول فيها الإبراهيمي:" المدرسة هي جنة الدنيا، والسجن هو نارها، والأمة التي لا تبني المدارس تبنى لها السجون، والأمة التي لا تصنع الحياة، تصنع لها الموت."[٧] كما وظفت المعاهد والمساجد والنوادي والصحافة، كما اعتمدت على وسائل ظرفية كالمشاركة في المؤتمرات والتجمعات والاحتجاجات وا إرسال الرسائل و الوفود.